تاريخ شعراء العربية

ابن القيسراني

العصر العباسي الثاني



إعداد
الدكتور محمد حسني مصطفى

مراجعة
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

عنوان الدار

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي

شارع هدى الشعراوي

هاتف : ٢٢١٣١٢٩ ص . ب : / ٧٨ / فاكس : ٢٢١٢٣٦١ ٢١ - ٠٠٩٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مراحل حياته

ولد أبو عبد الله ، شرف الدين ، محمد بن نصر في مدينة عكا سنة ٤٧٨هـ ، وهو ينحدرُ من سلالة خالد بن الوليد ﷺ، وكانت عكّا آنئذٍ تحت الحكم الفاطمي ، وكان اسم عاملهم على عكا زهر الدَّوْلة الجُيوشي ، الذي لم يَطُلْ حكمه فيها ، لأن الصليبيّين هاجموها برّاً وبحراً عام ٤٩٧هـ ، منطلقين من بيت المقدس بقيادة بلدوين (بودوين) ، وقتل خلْقاً كثيراً من أهلها ، وخلْقاً كثيراً آخرين أسرهم وساقهم إلى بلاده .

وانتقل الشاعر إلى قيسارية الساحل القريبة من عكا ، ونشأ فيها ، فنُسب إليها ، ثمّ هاجر مع أسرته إلى مدينة حلب .

على أنّ ابن القيسرانيّ كان كثير التطواف على دمشق ، والإلمام بها ، وهناك أخذ الأدب عن توفيق بن محمّد الدمشقي ، وتتلمذ للشاعر ابن الخيّاط ، وروى شعره ، وكان لابن الخيّاط ثقة به ، إذْ يقول في ختام ديوانه : "إنّ كلّ ما رواه عني (ابن القيسراني) فهو ما سمعه منّي أو قرأه عليَّ ، وما رواه غيره فلا يعتدّ به" .

وفي حلب أفاد مِنْ هاشم بن أحمد ، وأبي طاهر الخطيب ، ونراه يكثر من الارتحال والتنقُّل بين حلب ودمشق والموصل وشيزر ، وكان يحكم شَيْزَرَ آلُ منقذ ، فاتّصل بهم .

من بواكير شعره

مدح ابن القيسراني وهو بحدود الرابعة عشرة من عمره ملكَ شيزر عزَّ الدولة نصر بن علي المتوفى سنة ٤٩٢هـ ، وكان نصر قد كُلِمَ ثم عُوْفي ، فقال الشاعر :

كلُّ دعوى شجاعةٍ لم تؤيَّدْ بكلامِ الكِلامِ دعوى مُحالِ[١]
لا يَرُعكَ الصقّال في السّيف حتى يَنْطِقَ الفَلُّ شاهداً للصّقالِ[٢]
غادرَ البأسُ في جبينِك منه أثراً لاحَ في جَبينِ الهلالِ[٣]
لا يجلّي دُجَى الحوادثِ إلاّ غُرَرُ الحرْب في وجوه الرِّجالِ[٤]
في مقاديمها تُصابُ المقاديم – وتُرمَى الاكفالُ في الأكْفَالِ[٥]

في دمشق

كان ابن القيسراني يتردّد على دمشق ، وقد تولّى إدارة السّاعات على باب الجامع الأموي في عهد تاج الملوك بوري بن طغتكين التركي ، وليس في ديوان ابن القيسراني مدح لعاهل دمشق ، في الوقت الذي نجد فيه في آثار هذا

---

(١) الكِلام : جمع كَلْم ، وهو الجرْح . من ادّعى الشجاعة و لم يتعرَّضْ للمعارك والجِراح فادّعاؤه قولي لا عملي .

(٢) الفلّ : التثلّم . لا يُعْجبنّك سيف صقيل لامع حتى يُسْتعمل في الحرب وينبو ، فمن دون تجربته لا تعرف قيمته ، ولا يستبين معدنه .

(٣) أصيب نصر بن علي بضربة سيفٍ أبقتْ في جبينه أثراً،ويجرد من الأمير قمراً مكلوم الجبين .

(٤) دجى : ظلام . غرر : آثار ، جراح (يزيّن الجراح) .

(٥) المقاديم : الأبطال ، يصابون في وجوههم وصدروهم ، والمتخلّفون والفارّون (الأكفال) يصابون في ألياتهم وظهورهم .

الشاعر هجْواً لتاج الملوك الذي حكم دمشق ما بين عام ٥٢٣هـ وعام ٥٢٦ . وقد طلبه حاكمُ دمشق فقرّ إلى حُكّام حلب والموصل من الزنكيّين .

في رحاب الزنكيّين

كان الزنكيّيون في أعلى مراتب الرقيّ ، والوعي ، والإخلاص ، وكان لديهم إحساسٌ شفيف بالتقوى ، وهو إحساس دفعهم إلى طاعة الخلفاء والتزام أوامرهم ، ومن هنا كان اتصال ابن القيسراني بهم اتّصالاً بأعيان دار الخلافة في آن واحد ، فمدح منهم جلال الدين بن صدقة ، وزير الخليفة المسترشد ، ومدح ابن الأنباري كاتب الإنشاء بديوان العزيز ، أما الزنكيّون فقد مدح منهم عماد الدين ، ووزيره جمال الدين الأصفهاني ، الذي يقول فيه :

وإذا الوُفودُ همٌّ إلى الملوك تبادرت ... فطى جمال الدِّين وَفْدُ محَامِدي(١)
يا حبَّذا همٌّ إليكَ أصارني ... وعزيمةٌ تقفو رياضةَ قائِدِ(٢)
أنا روضةٌ تُزْهى بكلّ غريبةٍ ... أفَرائدي مَنْ لم يَفُزْ بفرائدي ؟(٣)
إنْ ساقني طلبُ الغِنَى أو شاقني ... حبُّ العلا فلقد وردْتُ مواردي(٤)

---

(١) يتوافد النّاس إلى الملوك لبلوغ مآربهم ، وتوجّه موكب الحمد من الشاعر للوزير جمال الدين .

(٢) تقفو : تتبع . يثني على همّه الذي بلّغه الوزير وعلى عزيمته التي جذبتها خصال ذلك القائد الهُمام .

(٣) تزهى : تفخر . رائد : طالب .

(٤) الغنى والعلا كلاهما عند الوزير جمال الدين الذي أَمَّه الشاعر .

ومتى عدَدْتُ إلى نَداك وسائلي أعدَدْتُ قصدي من أجلّ مقاصدي[١]
حتى أعـودَ من امتداحكَ حالياً وكـأنّني قُلِّـدتُ بعضَ قـلائدي[٢]

عماد الدين يفتح حصن بارين

عاش المسلمون بعد دخول الصليبيّين القدس سنوات عِجَافاً مرّة صَعْبـة ، وأراد الصليبيّون إذلالهم ، ويكفي للاستدلال على ذلـك أنّ أي شـاب أو رجـل في قُدْرته أن يحمل السّلاح كان مصيره بتر رأسه لأدنى مظهرٍ فيه قـد يثـير ريبـةً من هؤلاء المعتدين ، وأين كانوا يجعلون ذلك الرأس ؟ في كومـات ضخمـة مـن رؤوس القتلى يجعلونها كالقلاع !

وبقيت مقاومة المسلمين للفرنجة الصليبيّين شبه معدومة حتى ظهر عمـاد الدّين زنكي ، وكان ذكيّاً شجاعاً أبلى بلاء حسَناً في حروبه مع الفرنجة في بلاد الشام ، وتحدث الناس عن شجاعته ، وكان يُدْعَى زنكيّ الشام .

وقد ساءه تناحر الأمـراء على السـلطنة ، وقـال لبعـض أصحابـه : قـد ضجرْنا ممّا نحن فيه ، كلَّ يوم يملك البلد أمير ؟

وترك البصرة ومدينة واسط اللتين كانتا بإمرته ، والتحق بخدمة السلطان محمود السلجوقي ، الذي وثق به فندبه ليتولى أمر بلاد الشام الممزَّقة ، حين شعر بالخطر الذي يهدّدها بعد أنْ تمكّن الفرنجة من ديار الجزيـرة والشّـام ، واستولَوْا على أكثرها ، من ماردين شمالاً إلى عريش مصر جنوباً .

(١) الندى : الجود . توجُّهه أو توجُّه نيّته إلى الوزير هو وحده من أبرز وسائله إلى سخاء الوزير .

(٢) حالياً : مزداناً . القلادة : العقد في الرقبة .

نظر الناس إلى عماد الدّين على أنه البطل الموعود لإنقاذ بلاد الشّام من الصليبيّين ، واستطاع أن يستردّ منهم جزيرة ابن عمر ونَصِيبين وسنجار وحرّان ، وعبر الفرات ثم دخل حلب ، فرحّب أهلها بمقدمه ، ووصل إليه توقيع سلطاني بتوليته الموصل والجزيرة والشّام ، وأضاف إليه سنة ٥٢٥هـ العراق ، فعظم أمل الناس فيه .

أراد بثاقب بصره أن يوحّد البلاد قبل منازلة الصليبيّين في معركة حاسمة ، فهادن جوسلين صاحب الرّها مهادنة مؤقّتة ريثما يُعِدّ العدّة للمنازلة ، وحارب صاحب دمشق مدّة ، ولكنّ رسل الخليفة جاءته تطلب نجدته على السلطان السلجوقي مسعود بن محمد بن ملكشاه ، وهو أخو السلطان (محمود ابن محمد بن ملكشاه) ، وتأمره بمصالحة صاحب دمشق .

أراد الصليبيّون الذّين كانوا يرقبون الأمور عن كثب أنْ يستغلّوا التصدّع بين الخلفاء والسّلاطين والأمراء في بغداد وغيرها ، ليحصلوا على مكاسب جديدة في بلاد الشّام ، فجمعوا صفوفهم لمنازلة عماد الدين ، ولكنّه فاجأهم بجيش قوي مجاهدٍ مدرَّب ، وأحسّ الفرنجة بالخطر المُحدِق بهم ، فتسلَّل القسُس والرهبان إلى بلاد الروم والفرنجة ليستنصروهم على المسلمين ، وأقنعوهم بأنّ عماد الدين زنكي إنْ هو استولى على حصن بارين فإنّه سينطلق منه ويستولي على جميع البلاد التي بحوزتهم ، وستنصرف همّة المسلمين عندئذ إلى فتح بيت المقدس .

دارتْ رحى معركة قرب بارين ، وكان ملك بيت المقدس بين الصليبيّين الذّين فرّوا على إثرها ولجؤوا إلى حصنها ، فشدّد عليهم عماد الدين الحصار ، فطلبوا منه الأمان وسلّموه الحِصْن ونَجواْ بأنفسهم ، وكان عماد الدين يتابع

فتوحه خلال الحصار ، فاستردّ منهم المعرّة وكفر طاب وغيرهما[1] .

وأشاد الشعراء بهذا الفتح في كثير من قصائدهم ، منها قصيدة ابن القيسراني :

حَذارِ منّا وأنّى ينفع الحذَرُ ... وهي الصّوارمُ لا تُبْقِي ولا تَذرُ[2]
وأين ينجو ملوكُ الشِّرْك من ملكٍ ... من خَيْلِهِ النصر لا بل جُنْدُه القدَرُ
سلّوا سيوفاً كأغمادِ السيوف بها ... صالوا فما أغمدوا نصلاً ولا شَهَرُوا[3]
حتى إذا ما عمادُ الدين أرهقهم ... في مأزِقٍ من سناه يبرق البَصَرُ[4]
ولّوا تضيقُ بهم ذرعاً مسالكُهمْ ... والموتُ لا ملجأٌ منه ولا وَزَرُ[5]
وأصبحَ الدِّيْنُ لا عيناً ولا أثراً ... يخاف ، والكفرُ لا عينٌ ولا أثَرُ[6]
فلا تخفْ بعدها الإفرنجَ قاطبةً ... فالقوم إنْ نفَرُوا ألوَى بهم نفَرُ[7]
إنْ قاتلوا قُتِلوا أو حاربوا حُرِبُوا ... أو طاردوا طُردوا أو حاصروا حُصِرُوا
وطالما استفحلَ الخطب البَهيمُ بهمْ ... حتّى أتى مَلِكٌ آراؤه غُررُ[8]
والسيفُ مُفْترِعٌ أبكارَ أنفسهمْ ... ومن هنالك قيلَ الصّارمُ الذَّكَرُ

---

(١) انظر تفاصيل ذلك في : أدب الحروب الصليبية لعبد اللطيف حمزة ، و الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي لسيد كيلاني ، وصدى الحروب الصليبية في شعر ابن القيسراني للدكتور محمود إبراهيم ، ومفرّج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل ، وكتاب الروضتين لأبي شامة ، وأدب الدول المتتابعة لنعيم الحمصي ...

(٢) الصوارم : السيوف البتّارة .

(٣) سيوفهم كأجفانها فلم يغلبوا المسلمين بها ، ولم يدافعوا بها عن أنفسهم .

(٤) سناه : نوره ، يبرق البصر : يموت الصليبيون فتشخص أبصارهم .

(٥) وزر : منجى .

(٦) أصبح المسلمون لا يخافون الأوربيّين ، ولم يعد الأوربيّون يشكّلون شيئاً .

(٧) إن نهض الإفرنج للقتال ردّهم مجموعة قليلة من المجاهدين فقط .

(٨) غرر : ناصعة واضحة .

فــتـح الـرّهـــا

حدَث في أعقاب فتح بارين أنْ تَسلّم الخلافةَ في بغداد المقتفي با لله ، فأرسل عمادُ الدين قاضيه كمال الدين الشهرزوريّ ليبايعه .

وخشي الفرنجةُ من مغبّة معركة بارين ، وتداعَوْا ، وهبَّ لمساعدتهم سنة ٥٣٢هـ ملك الدولة البيزنطيّة ، وفتح ما أمامه حتى وصل إلى حماة ، فصمدتْ أمامه ، فتحوّل إلى حصن شيزر على مسافة قريبة منها ، فاستنجد صاحبها بعماد الدين الذي هبّ لنجدته ، وقد اجتمع عليه الروم البيزنطيّون والفرنجة الأوربيون ، فاستطاع عماد أن يقهرهم بعد حصار دام أربعة وعشرين يوماً استُعملت فيه كلّ أنواع الأسلحة المعروفة حينئذ ، وأَسَرَ كثيرين منهم .

حاصر عماد الدين بعد هذا النّصر دمشق سعياً وراء توحيد البلاد ضدّ الأعداء ، ولكنّ ملكها مجير الدين آبق بن محمد ، ووزيره معين الدّين أنر راسلا الفرنجة مستعينَيْن بهم عليه ، ومما ذكراه في مراسلتهما : إنْ مَلَكَ (عماد الدين) دمشق ، فسوف يملك بعدها بيت المقدس ، ولا يترك للصليبيّين بلداً بالسّاحل .

فهبّ الفرنجة جميعاً لنجدة ملك دمشق الخائن ، ودارت الدائرة على عماد الدين ، ودخل معين الدين أنر بلدة بانياس في الجولان[1] ، وقتل عامل عماد الدين عليها ، وسلّمها للفرنجة .

---

(١) بانياس الجَولان غير بانياس السَّاحل التابعة لمحافظة طرطوس .

وأخذ جوسلين صاحب الرَّها يهدّد شمال الشـام ، ومـدّ غاراتـه إلى آمـد ورأس العين ونصيبين ، واستولى على البيرة وسروج ، ولكنّ هزيمة عمـاد الديـن في دمشقَ لم تُضْعِفْ عزيمته ، وصمّم على تطهير البلاد من الفرنجـة وفتـح الرَّهـا التي يعدّها الصليبيون المدينة المقدسة الخامسة عندهم [1] ، فاستولى عليها عَنْوَةً[2] بعد أنْ حاصرها ثمانية وعشرين يوماً ، ثم حـرر بعدهـا الجزيـرة الفراتيـة وشمـال الشام ، وكان عماد الدين في كل فتوحاتـه فـذّاً في شـهامته ونُبلـه ، وليـس أدلّ على ذلـك مـن أنّـه حـين فتـح الرَّهـا الـتي كـانت المركـز الأوّل لتجميـع الجنـد النصارى أمر جنده بأن يردّوا إلى أهلها جميع مـن أسروه أو سـبَوْه ، ولم يعـامل أهل المدينة المسيحيّين كما عامل الصليبيّون مسلمي القدس حين دَخلوها .

وقال ابن القيسراني مشيداً بفتح عماد الدين لمدينة الرَّها :

هو السـيفُ لا يُغْنِيـكَ إلّـا جِـلادُهُ ... وهل طـوّقَ الأمـلاكَ إلّـا نجـادُهُ[3]

وعنْ ثَغْرِ هذا النّصر فلتأْخذ الظُّبـا ... سناها وإنْ فـاتَ العيـونَ اتّقـادُه[4]

سَمتْ قُبّـةُ الإسلام فخْـراً بطَوْلـهِ ... ولم يكُ يسمو الدِّيْنُ لولا عمـادُهُ[5]

---

(١) مدنهم المقدسة :القدس ، أنطاكية ، روما ، القسطنطينيّة ، الرها .

(٢) عَنْوة :بالقوة .

(٣) الأملاك : الملوك . نجاده : حمائله .

(٤) في (ثغر هذا النصر) استعارة مكنية . الظُّبا : جمع ظُبَة ، وهي حدّ السيف . سـناها : ضياؤها .

(٥) طَوْله : عظمة ذلك النصر . في كلمة (عماده) تورية ، لأن حديثه عـن قبـة الإسـلام يجعل المرء يظنّ مقصوده (العمود) ، مع أنّه يريد عماد الدين زَنْكي .

وذاد قسيمُ الدولـة ابــنُ قسـيمها ... عن اللــه مـا لا يُسْـتطاعُ ذيـادُهُ(١)
لِيَهْـنِ بنـي الإيمـان أمْـنٌ ترفَّعــتْ ... رواسـيه عزْمـاً واطمَـأنّ مِهـادُه(٢)
وفتحٌ حديثٌ فـي السَّماع ، حديثُـه ... شـهيٌ إلـى يـوم المعَـادِ مَعـادُه(٣)
لقـد كـان فـي فتـح الرُهـاء دلالـةٌ ... على غير ماعندَ العلوج اعتقادُه(٤)
مدينـةُ إفْـكٍ منــذ خمسـين حِجّــةً ... يَفُـلّ حديـدَ الهنـد عنهـا حِـدادُه(٥)
وجامحــةٍ عــزّ الملــوكَ قِيادُهــا ... إلـى أنْ ثناهـا مَـنْ يعـزّ قيـادُهُ(٦)
فأضرَمهـا نــارَيْنِ حَرْبـاً وخُدْعــةً ... فمـا راع إلّـا سـورُها وانهــدادُه(٧)
فصدّتْ صدودَ البِكْرِ عند افتضاضِها ... وهيهاتَ كان السيفَ حتماً سِفادُه(٨)
فـيـا ظفَــراً عــمَّ البــلادَ صلاحُه ... بمَنْ كان قد عمّ البلادَ فســـادُهُ(٩)

---

(١) القسيم : الشَّطْر ، يريد مكانته في الدولة . ذاد : دافع . وفي البيــت رَدٌّ للعجُـز على الصدر .

(٢) يهنئ المسلمين بفتح الرَّهــا . وبـين الإيمـان وأمـن جنـاس ، وبـين (ترفّعـت رواسيه) (واطمأنّ مهادُه) مقابلة .

(٣) فتح حديث : جديد ، وبين هـذه الكلمـة و (حديثه) مجانسة ، وكذلـك بـين المَعـاد ومَعاده .

(٤) العِلْج : كل جافٍ شديد من الرّجال . والحمار .

(٥) إفْك : كذب وتضليل . حِجّة : سنة . يفلّ : يعطّل ، يكسر . حداده : جمع حديد بمعنى حَادّ .

(٦) جامحة : متمرّدة ، يريد الرَّها . وقابل الشاعر بينها وبين (ثناها) ، وبـين (عـزّ الملـوك قيادها) و (مَنْ يعزّ قياده) .

(٧) شبّه الحرب بالنار ، والخدعة بالنار أيضاً .

(٨) سَفَد الذكر علىَ الأنثى : نزا .

(٩) بَمَنْ : الباء بمعنى على . وبين صلاح وفساد طباق .

فـلا منـبرٌ إلا ترنّـح عُـودُه — ولا مصحفٌ إلّا أنارَ مِـدادُهُ[1]
إلى أينَ يا أسرى الضّلالةِ بعده — لقد ذلّ غاويكمْ وعزّ رشـادُه[2]
رويدكـم لا مـانعٌ مـن مظفّـرٍ — يعاندُ أسبابَ القضاء عِنـادُه[3]
وقلْ لملوك الكُفرِ تُسْلِمُ بعدها — ممالكَهـا ، إنّ البـلادَ بـلادُه
ولله عـزمٌ مـاءُ سَيحانَ وِرْدُهُ — وروضةُ قسطنطينةٍ مُسترادُهُ[4]

نور الدّين يفتح حصن إنَّب

أعاد القائد المظفّر عمادُ الدين زنكي إلى المسلمين الأمل بالنصر واستعادة القدس ، واستطاع أن ينتصر في كثيرمن المواقع ، ووطّد الأمن ونشر العدل ، وقضى على الفساد ، واستطاع أيضاً أن يوحّد قسماً كبيراً من البلاد ، وأثبت للفرنجة أنّ من الممكن هزيمتهم ، بعد أن اعتقدوا أنّهم لا يُهْزمون .

وإذْ عجزوا عن مواجهته في ميدان الوغى تآمروا مع ضعاف الأنفس ، وتواطؤوا مع أحد خُدّامه ، وكان غلاماً إفرنجّياً اسمه "برتقش" على اغتياله ، وكان يحاصر قلعتي جعبر وفنك ، "فأيُّ نجْم للإسلام قد أَفَل ، وأيّ ناصر للإيمان قد رحل ، وأيُّ أسد افتُرِس؟" .

(١) ترنّح : اختال . استعار التّرنّح للعود والإنارة للمداد .

(٢) الغاوي : الضّالّ . عزّ : صَعُب . وفي (الضّلالة) إضافة تحقير ، وبين (ذلّ غاويكم) (وعزّ رشاده) مقابلة .

(٣) رويدكم : مهلاً .

(٤) سيحان : اسم نهر .

وخلف نور الدين محمود (٥١١-٥٦٩هـ) أباه في بلاد الشام ، واستطاع أن يقضي بسرعة على عصيان قام في الرّها ، وخاف الغرب خطره ، فأرسل حملة صليبيّة ثانية سنة ٥٤٣هـ ، فنازلها نور الدين ، وهي بقيادة ملك الألمان كونراد الثالث ، وملك فرنسا لويس السابع ، ولكنّ هذه الحملة خابتْ .

ثم سار نور الدّين إلى حصن حارم ، وكان بيد الفرنجة ، ثم سار إلى حصن إنّب ، وانتصر عليهم في موقعة هائلة انتهت بقتل البرنس صاحب أنطاكية سنة ٥٤٤هـ ، وحملَ رأسَه إلى حلب قصَبةِ مُلْكه ، وقد أكثر الشعراء من مدحه وتهنئته بهذا الفتح ، ومنهم ابن القيسَراني في قصيدته التي عارض فيها بائية أبي تمّام :

هذي العزائمُ لاما تدّعي القضُبُ … وذي المكارمُ لا ما قالت الكتُبُ

والبيت مدح رائع لانتصار نور الدين وفتحه لحصن إنّب ، وهو مطلع ذو تصريع بين القضب والكتب ، وفي ادّعاء القضب وقول الكتب استعارتان ، شخّص فيهما شيئين من الجَمادات ، والمطلع يذكّرنا بمطلع أبي تمّام :

السيف أصدق أنباء من الكتبِ … في حدّه الحَدُّ بين الجدِّ واللّعِبِ

ويتابع مدحه لأعمال نور الدين :

وهذه الهممُ اللاتي متى خطَبتْ … تعثَّرتْ خلفَها الأشعار والخُطَبُ

وهو يستعير الخطابة للهمم ، والتعثّر للأشعار والخطب . وألفاظه جزلة فخمة ضخمة ، يكاد اللسان يحسّ بالثقل وهو يلفظ بعض العبارات مثل "أقضى اتّساعاً" في قوله :

لله عزمُك ما أمضَى وهمُك ما … أقضَى اتّساعاً بما ضاقت به الحِقَبُ

وفي (أمضى) و (أقضى) ترصيع .

ثم يتحدّث عن المعركة :

أغرتْ سيوفَك بالإفرنج راجفةً ... فؤادُ روميّةَ الكبرى لها يَجِبُ[(١)]

ضربْتَ كبشَهم منها بقاصمةٍ ... أودى بهاالصّلْب وانحطّت بهاالصُلُبُ[(٢)]

غضبْتَ للدّين حتى لم يَفُتْكَ رضا ... وكان دين الهدى مرضاتُه الغضَبُ[(٣)]

طهّرتَ أرضَ الأعادي من دمائهم ... طهارةً كلُّ سيفٍ عندَها جُنُبُ[(٤)]

حتى استطارَ شرارَ الزّنْد قادحُه ... فالحرب تُضْرَمَ والآجال تُحتَطَبُ

وللظُّبا ظفرٌ حلوٌ مذاقتُهُ ... كأنّما الضّربُ فيما بينهم ضرَبُ[(٥)]

ثم يعود إلى مدح نور لدين :

مَنْ كان يغزو بلاد الروم مكتسباً ... من الملوك فنور الدين مُحتَسِبُ

أفعالُهُ كاسْمِهِ في كلّ حادثةٍ ... ووجُهه نائب عن وصفه اللّقَبُ[(٦)]

---

(١) الراجفة : المعركة .

(٢) كبشهم : زعيمهم (استعارة) . وشخّص الصُّلْب فهو يُوْدي أي يهلك . وكنى بقوله (انحطّت بها الصلب) عن خسارة الأعداء .

(٣) ردّ عجز البيت (الغضب) على صدره (غضبت) وقابل بين الشطرين .

(٤) من دمائهم : بدمائهم . كل سيف من سيوف جنودك اصطبغ بدم الأعداء . وقال أبو تمام :

تصرّحَ الدهرُ تصريحَ الغمام لها ... عن يوم هيجاءَ منها طاهرٍ جُنُبِ

(٥) الظّبا : السيوف . الضَّرَب : العسل .

(٦) اسمه محمود ، ولقبه نور الدين .

عمَّتْ فتوحُك بالعَدْوى معاقلَها | كأنّ تسليم هذا عند ذا جرَبُ
فانهضْ إلى المسجد الأقصى بذي لجَبٍ | يوليكَ أقصى المنى فالقدسُ مرتقِبُ
وأذَنْ لموجكَ في تطهير ساحله | فإنّما أنتَ بَحْرٌ لُجُّه لَجِبُ[1]
يا مَنْ أعادَ ثغورَ الشّام ضاحكةً | من الظُّبا عن ثغورٍ زانها الشَّنَبُ[2]
ما زلْتَ تُلحِقُ عاصيها بطائعها | حتى أقمْتَ وأنطاكيّةٌ حلَبُ
فاسعدْ بما نِلْتَه من كلّ صالحةٍ | يأوي إلى جنَّةِ المأوى لها حَسَبُ

والقصيدة كما أسلفْتُ تعارض بائية أبي تمام الطّائي ، ويمكن عقد مقارنة بين كثير من أبيات القصيدتين ، ولم يبدأها ابن القيسراني بمقدّمة طللية ولا غزلية ، واستمدّ قيمه في المديح من المعاني الدّينية ، وألفاظه سهلة ، لكنّها قوية ، واضحة ، مناسبة للموضوع ، ذات دلالة على ثقافة حسَنة لدى الشاعر .

(١) لجّه : أعماقه . لجب : عميق القرار ، ضخم المياه .

(٢) الشَّنَبُ : الرّضاب ، الرّيّق .

خاتمة

استطاع ابن القيسراني أنْ يصوّر جهاد نور الدين ضد الصليبيّين ، وحرصه البالغ على توحيد البلاد من أجل هذه الغاية ، لكنّ ابن القيسراني تورّط في مهاجاة ابن منيرٍ الطرابلسي ، وكان مقرّباً أيضاً عند الزَّنْكيّين ، وكان سليط اللسان ، فلم يشأ ابن القيسراني أن يبادله صُنعه ، واكتفى بقوله :

ابنَ منيرٍ هجوتَ منّي خيراً أفاد الورى صوابَهْ
ولمْ يَضيقْ بذاك صدري؟ فإنّ لي أسوةً بالصَّحابةْ

هذه المهاجاة شيء أوّل ، وتورُّط ابن القيسراني في مدح ملك جعبر علي بن مالك بن سالم العقيلي ، وكان لوالده (مالك بن سالم) ضلع في قتل عماد الدين رحمه الله ، والد نور الدين : شيء ثان .

وثمة شيء ثالث هو طمع ابن القيسراني في إصلاح ذات البين بين دمشق التي كان يحكمها مجير الدين آبق بن محمد الذي ينحدر من أرومة الطُّغْتكيين ، وبين حلب التي كان يحكمها نور الدين محمود الزنكي ، ولم يُقْنطه أنه كان في بدء أمره قد هجا بوري بن طغتكين وفرَّ من بلاده ، ولا أنّ مجير الدين آبق كان قد تعامل مع الصليبيين ضدّ الذين دعَوْه إلى الوحدة الإسلامية لمجابهة الخطر الصليبي .

فسافر ابن القيسراني إلى دمشق ، ومدح عاهلها ، ومات بعد وصوله إليه بأيام سنة ٥٤٨هـ . وقصائده في الزنكيين التي سُقْتُ طائفة منها ، هي أهمّ أشعاره ، وله قصائد تسمّى الثَّغْريات تغزَّل فيها بالنصرانيات في أنطاكية ومناطق الثغور أي الحدود بين المسلمين والبيزنطيين ، فسمّيت الثغريات[١] .

(١) يرى بعض الدارسين أن سبب التسمية هو ما فيها من تصنّع بديعي في معنى الثّغْر .